**المحاضرة 4/ التفكير اللساني في التراث العربي**

اللِّسانيات:" العلم الذي يدرس اللغة الإنسانية دراسة علمية تقوم على الوصف ومعاينة الوقائع؛ بعيدًا عن النَّزعة التَّعليميَّة والأحكام المعيارية" .[[1]](https://www.alukah.net/literature_language/0/95484/%22%20%5Cl%20%22_ftn1)

وقيل اللسانيات: هي الدراسة العلمية للغات البشرية كافة، من خلال الألسنة الخاصة بكل قومٍ من الأقوام. وهذه الدِّراسة تشمل: الأصوات اللُّغويَّة، والتَّراكيب النَّحويَّة، والدَّلالات والمعاني اللُّغويَّة، وعلاقة اللُّغات البشريَّة بالعالم الفيزيائي الذي يحيط بالإنسان.

‏ونعني بالدراسة العلمية: البحث الذي يستخدم الأسلوب العلمي المُعتمد على المقاييس التالية: مُلاحظة الظَّواهر اللُّغوية- التَّجريب والاستقراء المُستمر- بناء نظريات لسانية كلية من خلال وضع نماذج لسانية قابلة للتَّطوير- ضبط النَّظريات اللِّسانية الكُليَّة ثم ضبط الظَّواهر اللُّغوية التي تعمل عليها- استعمال النَّماذج والعلائق الرياضية الحديثة - التحليل الرياضي الحديث للغة - الموضوعية المُطلقة.

ومن يطَّلع على الكتاب الذي كتبه الباحث اللساني ر.روبنز (R. Robins) والمُسمَّى " التَّاريخ الوجيز للسانيات سيكتشف أنَّ تاريخ الأمم السَّالفة حافل وغني بالدراسات اللغوية التي تبحث في الظاهرة اللغوية، من الوجهة الصَّوتيَّة والتَّركيبيَّة والدّلاليَّة، ثم علاقة هذه المكونات اللُّغوية بالعالم الذي يُحيط بالإنسان... فاللُّغة ظاهرةٌ فيزيولوجيةٌ - إنسانية، لاحظها الإنسان منذ أن خُلق على وجه الأرض، وقد حاول وما يزال يحاول سَبْرَهَا. وهكذا فإنَّ تاريخ الإنسان - بغضِّ النَّظر عن جنسه وعرقه وأصله وفصله - مليءٌ بالدِّراسات التي تناولت الظَّاهرة اللُّغوية.....، ولو التفت الغرب المُعاصر إلى التَّأريخ اللُّغوي التُّراثي العربي؛ لكان علم اللِّسانيات الحديث في مرحلة مُتقدِّمةٍ عن الزَّمن الذي هو فيه [[2]](https://www.alukah.net/literature_language/0/95484/%22%20%5Cl%20%22_ftn2) يقول الدكتور مازن الوعر: هذه الحقيقة شاركني فيها عالم اللسانيات الأمريكي نعوم تشومسكي خلال حوار كنت أجريته معه 1982م [[3]](https://www.alukah.net/literature_language/0/95484/%22%20%5Cl%20%22_ftn3) .

ويرى الدكتور: الوعر: أنَّ صلة القُربى ليست فقط بين التُّراث اللُّغوي العربي [واللسانيات](https://www.alukah.net/literature_language/0/49789)، وإنَّما هي موجودةٌ أصلاً بين التُّراث اللُّغوي العالمي واللسانيات. هذه الحقيقة هي قانون علمي للظَّواهر الحضارية، ذلك لأنًّ اللسانيات لم تنشأ في فراغ لتخدم في فراغ، وإنَّما هي شيءٌ لاحِقٌ لشيءٍ سابقٍ. فعملية التَّأثير والتَّأثر موجودةٌ، ليس بين اللسانيات وبين الدراسات التي سبقتها، وإنَّما بين الظَّواهر الحضارية كُلِّهَا.‏ ولكي تستطيع اللسانيات أن تكون عِلماً قائماً برأسه مُستقلاً عن بقية العلوم الإنسانية والطبيعية الأخرى، فلابد لها من أن تستفيد من المعارف والنظرات اللغوية والتراثية سواء أكانت عربية أم غير عربية[[4]](https://www.alukah.net/literature_language/0/95484/%22%20%5Cl%20%22_ftn4) ‏ ولقد أثبت باحثون لِسانيون غربيون، مُعتدلون ومُنصفون (أمثال: روبنز [[5]](https://www.alukah.net/literature_language/0/95484/#_ftn5) ، وتشومسكي، وكوك)[[6]](https://www.alukah.net/literature_language/0/95484/#_ftn6) تأثر اللِّسانيات الحديثة بالتُّراث اللُّغوي العربي، وذلك عن طريق وسائل مُختلفة، سواءً أكانت مُباشرة (الاطلاع على التُّراث اللُّغوي العربي باللغة العربية) أم غير مباشرة (عن طريق ترجمة أعمال النُّحاة واللُّغويين والبلاغيين العرب إلى لغات أجنبية كثيرة؛ وخاصة اللغة الألمانية [[7]](https://www.alukah.net/literature_language/0/95484/%22%20%5Cl%20%22_ftn7) .‏

 وفي مقال للباحثة جوليا كرستيفيا [[8]](https://www.alukah.net/literature_language/0/95484/#_ftn8)، اهتمَّت فيه بإبراز دور النُّحاة واللُّغويين العرب القُدامى في إثراء الحركة اللُّغويَّة، وإسهامهم في بحوثها، خاصةً منها ما تعلَّق بالنَّحو العربي، فإنَّ النَّاظر في المُصنَّفات والكُتب اللُّغويَّة المُتداولة بين المُشتغلين بالدَّرس اللِّساني الحديث لا يملك إلا أن يُسجِّل بكثيرٍ من الحَسْرَةِ والاستياء؛ إغفالَ أصحاب هذه المُصنَّفات، الحركة اللغوية التي قام بها اللُّغويون والنُّحاة العرب القُدامى، ولعلَّ هذه الباحثة - وهي مَنْ هي في صُلب الدِّراسات اللِّسانيَّة والسِّيميائيَّة الحديثة - أحدُ الاستثناءات القليلة في كتابها: (Le Langage, cet inconnu Points-Seint, 1981)، حيث كتبت فقرةً لا يُستهان بها؛ حول إسهام العرب القُدامى في مجال الدِّراسات اللُّغوية، تُبيِّنُ فيها قيمة هذه المُساهمة؛ عنوانها (La grammaire arabe) (النحو العربي) ص129-134) حيث تقول: " يتبوأ النَّحو العربي مكانةً هامَّةً في صُلبِ مُكتسبات التَّفكير حول اللغة في العصور الوسطى... يقول المثل العربي السَّائر: إنَّ حكمة الرُّومان في ذهنهم، وحكمة الهنود في نزواتهم، وحكمة اليونان في رُوحهم، أمَّا حكمة العرب ففي لسانهم....، وتتميز النَّظريَّة اللِّسانيَّة العربيَّة بفكرها الثَّاقب؛ حول أصوات اللغة، لقد درج هذا الفكر على تقسيم الأصوات إلى شديدةٍ ورخوةٍ من جهة، وإلى صفيرية وقلقلة من جهة أخرى...، لما كان العرب علماء تشريح كبارًا، مثل سيبويه، فقد كان لهم فضلُ السَّبق في وضع الأوصاف الدقيقة لجهاز النُّطق، التي أضافوا لها الأوصاف الفيزيائية لحركة الهواء. وقد كان تحليلهم للنِّظام اللُّغوي من الدِّقّ-ة ما مَكَّنهم بعد - وربَّما كانوا الرُّوَّاد - من التَّمييز بين العنصر الصَّوتي الحرف والعنصر الكتابي العلامة للغة. كما أمكنهم تمييزهم للصَّوامت والصَّوائت من الاهتداء إلى حصر مفهومي المصوت والمقطع. هذا وقد عُدَّت الصَّوامت جوهر اللغة، في حين عُدَّت الصَّوائت عوارض (accidents)... هذا وقد كان [لسيبويه](https://www.alukah.net/literature_language/0/75204)، تلميذ الخليل، الفضل في بلوغ النحو العربي قمته، ويُعدُّ مُصنَّفُهُ " [الكتاب](https://www.alukah.net/culture/0/65611) " أول تأليف (Systématisation) وتركيب له.

ان طبيعة التفكير اللساني في التراث تُشغل غير واحد من الباحثين الذين يحاولون إقامة صلة علميّة واضحة بين ( التراث ) و (المعاصرة ) بين تراث واسع عريض – دوِّن في أزمنةٍ متعاقبة ويعالج مسائل مختلفة يلامس بعضها قضايا العصر ومشكلاته، ويبحث بعضٌ آخرُ منه ألواناً من التفكير الذي أمسى اليوم غريبا – وبين معارف لسانية معاصرة – هي مخرجات التفكير الحديث وأساليب العصرِ الذي تضخمت فيه المعرفة إلى حدِّ الانفجار – وصار الباحث العربيُّ يقف بين تيارين عظيمين : تيارٍ ينشئه تراث هائل لا يقوى على الفكاكِ منه وهو يراه جزءاً من تكوينه الروحي والفكري ، وتيّارٍ يمثّل هذه المعارف المعاصرة التي صارت تتخذ من المنهجية وأساليب التنظير والبرهنة أبرز سماتها وأهم خصائصها .

وبينَ يديَّ نصّانِ تراثيّانِ ينتميانِ إلى حقلِ تفسيرِ النصِّ القرآنيِّ الكريمِ ، وهما يتناولانِ بالتفسير قوله تعالى : (( ومن آياته خلقُ السمواتِ والأرضِ واختلافُ ألسنتكم وألوانكم )) ( الروم 22),

ولكنَّ لهما بعداً معرفيّاً يلامس جوانب من البحث الصوتيِّ ، أما أولهما فيقول فيه العلامة الزمخشري ( ت 538هـ ) : (( الألسنة : اللغات ، أو أجناس النطق وأشكاله ، خالف – عزَّ وعلا – بين هذه الأشياء حتى لا تكاد تسمع منطِقينِ متفقين في همسٍ واحدٍ ولا جهارةٍ ، ولا حِدّةٍ ( ولعلَّ المرادَ : شِدَّةٍ ) ولا رِخاوةٍ ، ولا فصاحةٍ ولا لكنة ، ولا نظمٍ ولا أسلوبٍ ، ولا غير ذلك من صفاتِ النطقِ وأحوالِهِ )) ( الكشاف 3/505).

وأمّا ثانيهما فيتحدّث فيه العلامة الطبرسي ( ت 548هـ ) عن تفسير ( اختلاف الألسنة ) الوارد الإشارة إليه في الآية الكريمة فيقول: " واختلافها هو أنْ ينشئَها اللهُ تعالى مختلفةً في الشكل والهيئة والتركيب ، فتختلفَ نغماتها وأصواتها ، حتى إنَّه لا يشتبه صوتانِ من نفسينِ هما أخوانِ " ( مجمع البيان في تفسير القرآن 8/43) .

والسؤال الذي يتبادر إلى ذهن القارئ هو : ما الذي تقدِّمُهُ ( القراءة التراثيّة ) للتراثِ من محاولةٍ لتحليل هذينِ النَّصَّينِ والكشف عن مزاياهما ؟ الإجابة تحتاج إلى مناقشة .

أمّا اللسانيّات الحديثة فإنَّ أدواتِها المعرفيّةَ تعيد قراءة هذين النصَّين وترى أنَّ ما قدّمه كلٌّ من الزمخشري والطبرسي يمكن أنْ يعدَّ سبقاً علميّاً في بابِهِ ( البحث الصوتيِّ ) ، إذ ترى هذه اللسانيّات أنَّ في النصّين إشارةً لما يسمّى عندها بظاهرة التفرد الصوتي ( أو البصمة الصوتيّة )، وتعني بها: أنَّ كلَّ فردٍ منّا يمتلك جرساً صوتيّاً أو نغمةً صوتيةً خاصّةً به ، وترى اللسانيّاتُ كذلك أنَّ الزمخشريَّ لم يكتفِ بتدوينِ هذه الظاهرة والإشارة إليها ، بل تعدّى ذلك إلى محاولة تحليلها، فقدّم نصّاً في تحليل الظاهرة التقى فيها مع أحدث الدراسات اللسانيّة التي ظهرت في السنوات العشر الأخيرة ، إذ تتحدّث مثل هذه الدراسات الآنَ عمّا تسمّيه : ( أمد بداية التصويت ) وتعني به : أنَّ كلَّ متكلمٍ ينطق الصوت اللغوي بمدةٍ زمنيّة ( تقدر بالمليثانية ) خاصّة به لا يشترك معه فيها أيّ فردٍ آخر ، أوَلا ترون أنَّ نصَّ الزمخشريِّ ليس بعيداً عن هذه الفكرةِ حين ذهب إلى أنّه لا يسمع منطقان متفقانِ في همسٍ واحدٍ ولا جهارةٍ ، ولا شدة ولا رخاوة إلى غير ذلك .

وأحسب أنَّ غيابَ الإشارةِ إلى البعد الزمني في نصِّ الزمخشريِّ له ما يسوِّغه فالتقدير الزمنيُّ لنطق الأصوات اللغويّة هو من مخرجات الدراسة الآلية المعاصرة ، ولكني أحسب أنَّ الطالب يشاركني في أنَّ جوهر الفكرة واحدٌ في ” نصِّ الزمخشريّ ” وفي ” اللسانيات الحديثة ” كذلك .

أمّا نصُّ الطبرسيِّ فإنَّ للسانياتِ طريقةً أخرى في قراءتِه ، فهي ترى أنَّ الطبرسيَّ قد فَسَّرَ اللسانَ الوارد في الآيةِ الكريمةِ بالعضو الناطق ، ثم فسر سبب اختلاف النغمات والأصوات باختلاف أشكال وهيئات وتركيب هذا العضو الناطق ، وهو بذلك التقى مع الدرس الحديث في مسألتين : في تأكيد أهمية اللسانِ ، إذ يرى هذا الدرس أنَّ اللسان هو أهم أعضاء آلة النطق عند الإنسان ، وفي تأكيد هذا الدرس أنَّ اختلاف النغمات الصوتية عند المتحدثين يعود في جانب رئيس منه إلى اختلاف أَعضاء آله النطق عند الإنسان ، وفي ذلك يقول الدكتور سمير شريف إستيتية : (( يصحُّ الافتراض القائل إن اختلاف أصواتِ اللغاتِ الإنسانية بعضها عن بعضٍ يرتبط إلى حَدٍّ ما بالاختلافات الفسيولوجية في أعضاء النطق بين أمَّةٍ وأخرى وربما كان اختلاف طول اللسانِ واحداً من أبرز الاختلافات الفسيولوجية تلك)) (الأصوات اللغوية – رؤية عضويّة ونطقية وفيزياوية 13. (

إنَّ هذه الطريقة في المزج ما بين التراث العربيِّ ” الواسع الكبير و ” اللسانيّات الحديثة ” هي التي تجعلني أرجّح أنَّ اللسانيات بما تمتلكه من بعد فلسفيٍّ عميق ، وأدواتٍ منهجيّة إجرائيّةٍ تستمدُّ من ذلك العمقِ الفلسفيِّ خيوطها ونسيجها هي قادرة على إعادة قراءة التراث العربيِّ ( ولاسيّما اللغويِّ منه على وجه الخصوص ) ، وبعثِ ذلك التراث ، وتقديمِ نصٍّ علميٍّ عربيٍّ يقوم على أساسِ الحقيقة العلميَّةِ التي تجمع مابين ذلك التراث وتلك الحداثة العلميّة الراهنة .

------------------

[[1]](https://www.alukah.net/literature_language/0/95484/%22%20%5Cl%20%22_ftnref1) مبادئ اللسانيات، لأحمد قدور (ص11)

[[2]](https://www.alukah.net/literature_language/0/95484/%22%20%5Cl%20%22_ftnref2) صلة التراث اللغوي العربي باللسانيات، د. مازن الوعر - مجلة التراث العربي.

[[3]](https://www.alukah.net/literature_language/0/95484/%22%20%5Cl%20%22_ftnref3) وقد نشر الدكتور الوعر ما قاله تشومسكي حول هذا الموضوع في مجلة اللسانيات الصادرة عن معهد العلوم الإنسانية والصوتية التابع لجامعة الجزائر (المجلد 6-1984م)

[[4]](https://www.alukah.net/literature_language/0/95484/%22%20%5Cl%20%22_ftnref4) صلة التراث اللغوي العربي باللسانيات، د. مازن الوعر (مرجع سابق.

[[5]](https://www.alukah.net/literature_language/0/95484/%22%20%5Cl%20%22_ftnref5) أنتوني روبنز (Anthony Robbins): كاتب ومتحدث أمريكي، ولد في 29 فبراير 1960م في كاليفورنيا وله عدة كتب وبرامج في مجال تطوير الذات، من مؤسسي البرمجة العصبية اللغوية.

[[6]](https://www.alukah.net/literature_language/0/95484/%22%20%5Cl%20%22_ftnref6) ولتر كوك (Walter Cook) العالم اللساني الأمريكي المشهور.

[[7]](https://www.alukah.net/literature_language/0/95484/%22%20%5Cl%20%22_ftnref7) صلة التراث اللغوي العربي باللسانيات، د. مازن الوعر مجلة التراث العربي.

[[8]](https://www.alukah.net/literature_language/0/95484/%22%20%5Cl%20%22_ftnref8) جوليا كرستيفيا: ناقدة ولغوية فرنسية مشهورة، أصلت لظاهرة التناص في النقد الأدبي.ا